شاعر «دوس»

الطفيل بن عمرو

رضي الله عنه

حاول أن تعطي نفسك فرصة تستمع فيها للآخرين

فربما تتغير حياتك

«أحذرك أن تستمع إليه يا طفيل ».

هتف بها في لهفة أحد قادة قريش للطفيل بن عمرو، الذي كان قد جاء لتوه من بلاده إلى مكة للمشاركة في ملتقى الشعراء العرب في سوق عكاظ، كواحد من الشعراء الكبار وأكثرهم شهرة في الجزيرة العربية.

قال الطفيل في غرابة:

- وما الخطورة أن أسمعه، أنا جئت إلى هنا لأتحدث وأستمع، وإن كان شاعرا، فأنا شاعر.

قال آخر وهو يقترب منه ويقدم له بعض الفاكهة في قلق وهو يحاول إقناعه:

- لا..لا يا طفيل..إنه ليس بشاعر..إنه ساحر، كلامه يفرق بين الرجل وأبيه والرجل وأخيه، والرجل وزوجته، وإنا نخشى عليك وعلى قومك منه، فلا تكلمه ولا تسمع منه حديثا.

كان ذلك في السنة العاشرة للبعثة، وكانت قريش قد أجهدت المسلمين إجهادا لا مثيل له في حصار اقتصادي واجتماعي دام ثلاث سنوات في شعب بني هاشم، توقفت خلالها الدعوة تماما في مكة.

كانت قريش ترى في هذا الحصار نهاية دعوة الرسول ﷺ في مكة، بعد أن نجحت في أن تفرض عزلة حديدية بينه وبين الناس.

ورغم هذا كله..

كانت قريش في أشد الرعب من الرسول ﷺ..

ولقد كان معها كل الحق في ذلك..

فرغم كل ما حدث.. كان إصرار الرسول ﷺ فوق كل تصور.. وقدراته ومواهبه، كانت قريش أعلم بها من غيرها.

لذلك.. لم يكن الرسول ﷺ ليفوت فرصة الحج ليمر على القبائل واحدة تلو الأخرى، يطلب منها العون والنصرة.

وقبل أن يقابل الرسول ﷺ القبيلة التي تقدم له الحماية.. قابل الطفيل بن عمرو.

الشاعر الموهوب الشهير في مكة والجزيرة..

أحد المواهب الفذة التي خشيت قريش أن يجتذبها الرسول ﷺ إلى صفه كما اجتذب من قبل الكثير والكثير.

ولذا.. فلقد أحاطته فور وصوله بكل رعاية، ووفرت له من أسباب الترف والضيافة الكثير والكثير.

وظلوا لأكثر من ساعة يحذرونه من محمد ﷺ وحديثه وسحره..

حتى صدق الطفيل..

وشعر أنه سيسحر بالفعل.. وأنه سيقع تحت تأثير قوة أسطورية لا طاقة له بها.

ونجح قادة قريش في أن يقذفوا في قلب الطفيل الخوف من الرسول ﷺ، حتى وصلت به الدرجة إلى أنه كان يسد أذنيه حتى لا يستمع إليه.

إلى هذه الدرجة وصل رعب قريش من كلمة الحق؟!

وبينما كان الطفيل يمر من أمام الكعبة، فإذا به يرى رجلا يصلي صلاة لا يعرفها، فأدرك أنه محمد ﷺ..

ورغم كل التوجيهات والنصائح التى ملأت أذن الطفيل، إلا أن شيئا ما جعله يقترب من الرسول ﷺ، وشاء له الله أن يسمع بعض آيات القرآن مما كان يتلوها الرسول ﷺ في صلاته.

وانقلب السحر على الساحر.

فبعد أن فعل الطفيل ما فعل، توقف للحظات ليفكر ويقول في نفسه:

«ما هذا الذي أفعله ؟

أنا الشاعر الذي أتلاعب بالكلمات والمعاني والألفاظ..

أنا الذي يقف الجميع ليسمعني فيحزنون إذا شئت لهم أن يحزنوا، ويفرحون إذا شئت لهم أن يفرحوا.

أنا الذي يخشاني الزعماء من أن أنتقدهم بنقدي اللاذع، ويتقرب إلي القادة لأمدحهم وأرفع شأنهم بين الناس.. أخشى من تأثير الكلام علي ؟!».

بعض من التفكير.. اقتنع الطفيل بعده أن ما فعله يعد إهانة له ولتاريخه، وانتقاصا رهيبا من قدراته..

بل إنه يعد إهانة كبيرة لعقله.

فقال لنفسه في انفعال:

- أصغير أنت يا طفيل حتى تخشى عليك قريش من كلام الكبار ؟

وبرد فعل طبيعي أراد الطفيل أن يستعيد الثقة في نفسه، فقرر أن يتبع الرسول ﷺ إلى بيته.

آخر ما كانت تتوقعه قريش..

فربما لو تركت الطفيل دون نصائح، لما قادته الظروف لمقابلة الرسول ﷺ.

لكن عقل الطفيل قاده إلى الخير..

كل الخير .

«حدثوني عنك كثيرا يا محمد، حدثوني وأرهبوني ونصحوني ألا أسمعك..

ولكني جئت أسمعك ».

في هدوء وسكينة، نطق بهذا الكلام الطفيل بن عمرو للرسول ﷺ وهو جالس في منزله، والذي ما لبث أن رحب به وبدأ يشرح له طبيعة الدعوة ويتلو عليه بعض آيات من القرآن الكريم.

وجلس الطفيل يستمع ويسأل، ويفند المعاني ويقلب الأفكار، وقد أخفض بصره إلى الأرض.

وهنا.. رفع الطفيل بصره إلى الرسول ﷺ ليقول له في هدوء من وصل إلى حقيقة:

- والله ما سمعت قولا أحسن مما تقول، ولا أمرا أعدل مما تقول.

كانت الكلمات معبرة عما انتوى الطفيل أن يفعله..

لقد قرر الطفيل أن يسلم، رغم كل ما فعلته قريش، ليثبت أن الحق لا يستطيع أن يقف أمامه أحد.

وصدمت قريش صدمة أخرى في رجل آخر عدته من أبنائها وحلفائها..

وكانت ستتضاعف صدمتها لو علمت ما انتوى عليه الطفيل بعد إسلامه.

فلقد أراد الطفيل أن يستخدم مكانته ومركزه العائلي في قبيلته دوس في اليمن ، وشهرته الواسعة كشاعر كبير، في أن يؤثر في أهله فيدعوهم للإسلام.

ولقد أخبر الرسول ﷺ بذلك، ورجاه أن يدعو له بأن يعينه الله على تلك المهمة.

فدعا له الرسول ﷺ.. وانطلق الطفيل عائدا إلى اليمن، ورأسه قد امتلأت بأفكار وخطط كثيرة يريد بها أن يحيل أهله من الكفر إلى الإسلام.

وكان طبيعيا أن يبدأ الطفيل بأهل بيته، فحقق نجاحا باهرا..

فلقد أسلم أبوه وأمه وزوجته دون عناء.

وكانت الخطوة الثانية هي الخروج إلى القبيلة ليدعوهم إلى ما دعا إليه أهله.

كانت ثقة الطفيل كبيرة في قدرته على التأثير في أهل قبيلته ، فلم يكن يتوقع منهم اعتراضا أو إثارة لمشاكل.

لكن ما حدث كان على غير المتوقع.

فلقد فوجئ الطفيل بجدل واسع حول ما يدعواليه، وإثارة لمشاكل لم يكن يتخيلها، ورغم جهده الجهيد وعنائه في الدعوة لم يخرج من كل قومه إلا بواحد.

نعم.. واحد فقط..

أتعرفون من هو ؟

إنه أبو هريرة.

وأصيب الطفيل بخيبة أمل شديدة، ولم يجد حلا إلا أن يركب راحلته ويسافر عائدا إلى مكة، ليقابل رسول ﷺ الله ويحكي له ما حدث.

ولم يكد يصل إلى مكة حتى أسرع إلى رسول الله ﷺ، حتى إذا ما قابله، صاح والغضب والأسى يملأ وجهه:

- يا رسول الله، إنه قد غلب على دوس الزنا والربا، فادع الله أن يهلك دوسا.

ظل الرسول ﷺ يستمع إلى الطفيل جيدا، وشعر بقدر الإحباط الذي أصابه، وأخذ يحاوره ويسأله في رفق محاولا أن يخفف عنه ألمه النفسى، وفي نفس الوقت يحاول أن يستنبط أسباب الفشل في دعوته لقبيلة دوس، إلى الدرجة التي جعلت الطفيل يسافر إلى مكة ليطلب من الرسول ﷺ أن يدعو على قومه.

وامتد الحوار ليضع الرسول ﷺ يده على سبب الفشل.

لقد أدرك الرسول ﷺ أن الطفيل قد اشتد عليهم في الدعوة إلى الله، وأنه قد استغل مكانته بينهم ليوصل إليهم الدعوة بطريقة الأمر، لا بطريقة الحوار والإقناع.

والدعوة إلى الله من المستحيل أن تنجح بهذه الطريقة، وسيتحول الناس إلى العناد بصورة تلقائية، ما دامت اتخذت طريق الأوامر العسكرية، وهو طريق مسدود في الدعوة إلى الله.

وهنا قال الرسول ﷺ للطفيل:

«يا طفيل..ارجع إلى قومك، فادعهم وارفق بهم».

ثم رفع يديه إلى السماء ليدعو في تضرع:

« اللهم اهد دوسا، وأت بهم مسلمين».

نظر الطفيل إلى الرسول ﷺ نظرة فهم معناها جيدا، فابتسم له وهو يربت على كتفه بحنان ورحمة.

الحنان والرحمة .. ذلك هو مضمون الدرس الذي أراد الرسول ﷺ أن يفهمه للطفيل.

وهو نفس منهج الدعوة الذي عاد الطفيل به إلى قبيلته دوس ليبدأ معهم من جديد.

ويبدأ الطفيل دعوته..

وشيئا فشيئا.. يدرك الطفيل أنه كان مخطئا، وأن العيب لم يكن في الناس بقدر ما كان في أسلوب الدعوة.

لقد بدأ الناس يقتنعون ويدخلون في الإسلام..

وتمر الأيام وتتزايد الأعداد المقبلة على الإسلام، وفي كل مرة ينجح الطفيل في دعوة واحد من قبيلته، ترن نصيحة الرسول ﷺ في أذنه ويبتسم.

«يا طفيل.. ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم».

واستمرت دعوة الطفيل بنجاح لم يكن يتخيله، حتى أسلمت دوس كلها.

نعم.. دوس كلها.

لقد كانت قريش لها كل الحق في أن تحذر الطفيل من الاستماع لمحمد ﷺ..

فنصيحة واحدة جعلت المئات يدخلون في الإسلام.

ويظل الطفيل في قومه يعلمهم الإسلام سنوات وسنوات، إلى أن يأتي اليوم الموعود، ليقابل نبيه ﷺ بالمفاجأة السارة.

ولكنه لن يقابله هذه المرة وحده.

إنه سيأتي معه بالمئات من أهله من قبيلة دوس، عندما يعزموا معا على الهجرة إلى بلد الحبيب ﷺ.

إلى المدينة.

في المدينة.. وفي السنة السابعة من الهجرة.

وبعد عودة الرسول ﷺ والمسلمين من خيبر بعد فتحها، لم يكن يدري المسلمون أنهم على موعد مع فتح آخر.

فمن بعيد.. كان هناك موكب حافل يتحرك صوب المدينة.

موكب يحمل ثمانين عائلة من قبيلة دوس، يتقدمهم الطفيل بن عمرو وعلى ألسنتهم: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وتنزل قبيلة دوس وسط ترحيب هائل من المسلمين..وتقع عينا الطفيل على عيني الرسول ﷺ بعد تسع سنوات كاملة لم يره فيها.

ويشد الطفيل على يد الرسول ﷺ شاكرا له نصيحة عمره، ودعاءه الجميل الرحيم:

«اللهم اهد دوسا وأت بهم مسلمين».

ولقد هدى الله دوسا وجاء بهم إلى المدينة مسلمين.

وتتوالى الفتوحات..

فلم يمض عام واحد، حتى كان الطفيل من بين عشرة آلاف مسلم يزحفون لفتح مكة.

ووجد الطفيل الرسول ﷺ وهو يهدم أصنام الكعبة، فأراد أن يمحو بيديه ذكرى سيئة تذكره بالسوء وأصحابه.

إنه صنم كان الطفيل دائما ما يحمله معه لصديقه عمرو بن حممة، كان يسمى (ذوالكفين) عندما كان يزوره في مكة، وعندما كان ينزل في ضيافته لا يلبث الاثنان إلا أن يخشعا له في تضرع كامل..

«ائذن لي يا رسول الله ﷺ أن أذهب فأحرق هذا الصنم».

هتف بها الطفيل ابن عمرو في حماس وغضب للرسول ﷺ، والذي أشار إليه بالموافقة على الفور.

وبسرعة.. يجري الطفيل ليوقد نارا على الصنم، وهو يترقبها كلما هدأت يزيدها اشتعالا وهو ينشد الشعر الذي خشيت قريش أن يتحول لصالح الإسلام، وهاهو يتحول أمام قريش كلها وهو يقول:

يـــا ذا الكفـــين، لـــست مـــن عبـــادك

ميلادنـــا أقـــدم مـــن ميـــلادك

إني حـــشوت النـــار في فـــؤادك

وظل الطفيل على الصنم حتى قضت عليه النار تماما، كما تم القضاء على الشرك والوثنية في كل مكة.

ويفرح الطفيل ويضيف إلى إنجازه مع أهله في دوس إنجازا آخر.

إلا أن أعمال الطفيل لازال لها بقية..

فمازال ينتظره وعد الله في معركة اليمامة.

خرج الطفيل بن عمرو مع ابنه عمرو يوم اليمامة، وهو يوصيه ويشد عليه أن يقاتل جيش مسيلمة الكذاب قتال من يريد الموت والشهادة.

أما هو.. فكان أسبق من ابنه في البحث عن الشهادة.

فلقد كان متواعدا مع ضربة سيف في جسده يسقط بعدها على أرض المعركة، قبل أن ينظر إلى السماء نظرته الأخيرة.

ويرحل إلى عالم آخر..

يستقبل فيها دعوات مئات ممن أسلموا على يديه..

من قبيلة دوس.

* * *

١ - الإسلام له قوة تأثر رهيبة على تحريك مشاعر المسلمين، ولذا يخشاه الطغاة بشدة (قريش تحذر الطفيل بن عمرو من سماع كلام الرسول ﷺ).

الإسلام له قوة منطق كبيرة وقوة روحية لا مثيل لها وشحن عاطفى هائل، وكل هذا له قدرة هائلة في أن يحرك المسلمين بل وغير المسمين في اتجاه البناء والتنمية وإسعاد الناس بل وإسعاد العالم أجمع، فما المشكلة أن نستخدمه في هذا الاتجاه ؟ المشكلة يدركها أعداء الإسلام جيدا، إن انتصار فكرة الإسلام يعنى انهيار أفكار أخرى ونظريات أخرى، ويعنى ملاحقة المطامع وتحجيم الشهوات وتقييد الفساد، من أجل هذا يحاول الأعداء والطغاة والطامعون جادين أن يمنعوا وصول الإسلام الحقيقى بصورته الكاملة إلى أسماع الناس، فيتأثرون به ويتحركون من أجل التغيير، وهذا بالضبط هو ما حاولت قريش أن تفعله مع الطفيل، ولكن محاولتهم الساذجة باءت بالفشل؛ لأن الحق لابد أن يصل إلى الناس ولو بعد حين.

٢- بعض الشباب يخشى الهداية، فيمنع نفسه عمدا من سماع الدروس الدينية (الطفيل يسد أذنيه حتى لا يستمع إلى الرسول ﷺ فيتأثر به).

قد يزداد تمسك الفرد بالشهوات وتتمكن منه المعاصى حتى يصل إلى المرحلة التى يخاف فيها أن يدخل مسجدا أو يحضر درسا دينيا، وتراه يغير المؤشر بسرعة عن أي برنامج دينى في الفضائيات إلى فيلم أوأغنية أو مباراة كرة، خشية أن يتأثر بكلام المحاضر فيبدأ في التفكير في تغيير حياته، أو على الأقل خشية أن يصيبه نوع من تأنيب الضمير.

إن المعصية حينما تتمكن من الإنسان ، تجعله غير راغب في الهداية، حتى إنه يخشى أن يدعو في صلاته في رمضان مثلا بأن يهديه الله، خشية أن يستجيب الله دعاءه !!

لا ينبغى أن يسد الإنسان على نفسه كل أبواب الهداية بهذه الطريقة، فليترك لنفسه بعض الوقت ليستمع أو يشارك في بعض الدروس الدينية حتى وإن كان على سبيل التغيير، لماذا يصر بعض الشباب على أن يحكم على نفسه بالإعدام ؟ ولا يترك لنفسه فرصة ولو ضعيفة لأن يحيا من جديد ؟.. حياة الإيمان والطاعة ورضا الله والشوق إلى الجنة.

٣- قريش كانت تخشى على الطفيل من الرسول ﷺ؛ لأنه موهبة إعلامية وله قدرة كبيرة على التأثير (قريش تحذر الطفيل من سماع كلام الرسول ﷺ).

أي فكرة تريد أن تنتشر وتنجح في التأثير في الآخرين، لابد أن تضم إليها المواهب والشخصيات المؤثرة والتى لها القدرة على التأثير في شرائح واسعة من الناس إليها، وأي مؤسسة إدارية أو دعوية تريد أن تنجح لابد وأن تلتقط المواهب إليها، فهي التي لها القدرة على الإبداع والوصول إلى الأهداف بطرق مبتكرة.

والمؤسسات الفاشلة لا يهمها المبدعين ولا تهمها المواهب، بل وتسعى إلى نبذها ولو بطرق ملتوية، ودائما تراها عبئا ثقيلا عليها؛ لأنها تكشف أخطاء مسئولين غير أكفاء، وتجعل أصحاب العقول الضعيفة يضيقون بآرائهم الجديدة، وتكون النهاية الطبيعية، هي انسحاب هذه المواهب لتذهب إلى أماكن أخرى لديها رغبة في النجاح والتفوق.

٤- الله يريد أن يتبع الناس الإسلام عن اقتناع ، لا أن يجبروا عليه، فيصبح إسلاما شكليا دون جوهر؛ ولذلك لابد من دعوة الناس إلى الخير بحكمة وفن، لا بشدة وعنف (الرسول ﷺ يطلب من الطفيل بن عمروأن يدعو قومه بالرفق واللين).

الالتزام بالدين لا يمكن أن يأتي عن طريق الإجبار، بل لابد أن يأتي عن طريق الحوار والإقناع، والطريقة الأولى ربما تجعل الناس يلتزمون بالإسلام شكليا، فترتدي الفتيات الحجاب وربما النقاب، وتجبر المحلات على الإغلاق وقت الصلاة.. ويصبح الشكل العام إسلاميا.. ولكنه يظل إسلاما شكلا لا جوهرا، ويصبح في داخل كل شخص كبت داخلي لا يخرج إلا بعيدا عن الأجهزة الرسمية، ويعترف أمام أصدقائه أنه غير مقتنع بما يفعل، وتكثر المعاصي سرا، بينما يكون الشكل العام جميلا مبهرا.

إن الإسلام دين تربية، لا يعنيه التزاما شكليا مظهريا، بل يعنيه أن يقتنع الشاب أوالفتاة بالإسلام فيطبقونه على أنفسهم أمام الله وأمام الناس، وتصبح النفوس صادقة مع نفسها، فلا تتعلم النفاق مع الناس، ولا تلجأ للنفاق مع السلطة.

وليس معنى ذلك أن الخطأ سينتهي من الوجود، ولكنه سيكون الاستثناء لا القاعدة.

نحن نريد إسلام الجوهر والمظهر، الإسلام النابع من الداخل، من أعماق القلب، نريد المؤمن الموصول بالله، الذي يقوم في جوف الليل ليرفع يديه إلى السماء طالبا من خالقه الرحمة والمغفرة.

نرى الكثيرين يجتهدون في دعوة الناس إلى الشر والفساد الأخلاقي والأفكار الهدامة بوسائل جذابة مبهرة، تفتن الناس وتجعلهم ينساقون وراء هذه الدعاوى رغم علمهم بخطئها، بينما تكون الدعوة إلى الخير والهدى والأفكار البناءة بأسلوب ممل رديء، ومما يزيد الأمر سوءا أسلوب بعض الملتزمين في دعوة الناس بشدة وعنف، بطريقة لا تتسبب في فشلهم في دعوة الناس فقط، بل تتسبب أيضا في إعطاء فكرة سيئة عن التدين نفسه، والاقتناع بأن المتدين ينبغي أن يكون متجهما وعنيفا وغير قابل للحوار والنقاش، مما يسيء إلى الإسلام نفسه.

إن الدعوة إلى الله فن ينبغي أن يدرس؛ حتى لا نسيء إلى الإسلام – ونحن نقصد الخير – أكثر مما يساء إليه.

٥- عندما تتحسن صلتك بالله ستحطم أصناما كثيرة في حياتك (الطفيل بن عمرو يحرق صنمه الذي كان يعبده في الجاهلية، بعد فتح مكة).

الإسلام يحرر العقل، والصلة بالله تهدي القلب، والعقل الحر والقلب الذي أضاءه نور الإيمان

يجعلان الإنسان على بصيرة من أمره، ليبدأ بعدها في أن إعادة التفكير في أمور كان يحبها ويتعلق بها ولا يتصور حياته بدونها، حتى وصلت إلى حد الأصنام في حياته، فإذا به يجد نفسه وقد رآها على حقيقتها، ووجد في نفسه القدرة على الابتعاد عنها حبا لله.

إن الأصنام في حياتنا كثيرة، منها نظرة المجتمع العربي إلى المرأة، ومنها تقاليد موروثة لا نستطيع تحريكها أو حتى النقاش فيها مع علمنا بخطئها، ومنها سلوكيات خاطئة استهوتنا وأسرتنا بحبها.

إن الإيمان بالله هو وحده القادر على أن يحطم الأصنام.. فليعرف كل منا صنمه.. وليذهب إليه يحطمه.

* * *